عروس تزف الى قبر

معداة الى ذلك الغريق في بحر من الارقام أول كل شعر وآخره والى ذلك الطريوش الطويل الذي ضيع عمره في الأدب وأرق لياليه بكاء على الاطباء

كانت ليلة حالكة من تلك الليالي التي تسرف في الامتداد فلا يغرب لها نجم ولا تنتهي الى صباح والغريقة في الالغاز والأحاجي فلا تخضع للعلم الا قطعة قطعة في شيء كثير من الغموض والتكهن . وكانت ليلة قاسية يقترجم به الأرض من رعد وماتلتاح به الحي والحياة من سموم وجليد . كانت ليلة — لا كالليالي — عاصفة ثائرة كل شيء فيها ينبيء بان شرا قديما وخطبة جسيمة تتظاهر على تنفيذها البالسة من بني آدم وحواء .

***

كان كهلا تقترب منه الشيخوخة بخطوات حثيثة ولكن لا يعترف بذلك، فيوشاب في ريعان الشباب لا يرى إلا حليق الوجه يتعهد عمامته كل حين ويرى شعره الذي اكتسحه البياض غريقا في زيوت العطر مرسلا بكل عناية تحت عمامته البيضاء تنبعث منه اشعة بهاء ساطعة .

وكثيرا ما يفخر بكهولته ولكنه يلتمس لها احسن التعليلات فلا يسميها بما سمتها به الطبيعة ولكنها — في نظره — شباب قد اكتمل نضجه ورجولة قد بلغت حد التمام .

هو محدود الفكر ضيق الأفق ولكنه كان شخصا محبوبا يعرف كيف يغطي نقائصه برزانة ووقار مفكا بين فترة وفترة غامضة تضفي على نقائصه ثوبا من وهبة فاذا النقص في حقه كمال . ولم يكن ليخفى ولذلك تعود ان يقول : ان الجمال مكانه لمرأة اما الرجل فكان الجمال منه عقله وقلبه ! ويسوق اليك هذه الحكمة في لهجة ضمنية اعتراف بجمال عقله وقلبه .

كان محبوبا في القرية اذا ذكر الشيخ حمدان — ذلك الولي الذي ساقه أهل الله الى القرية من مكان مجهول لهد بتها — فقد ذكر علم من اعلام العلم وقطب من اقطاب الوجود وإمام من ائمة الدين . يحبه كل رجل ويعجب به كل طفل وتعجب به كل مرأة .

تعجب له كل امرأة ؟ نعم ؟ فقد كان شيخنا اعزب قد افقرت امه وليا له من الانيس ولكن الناس لم يشؤا ان الفوا منه هذه الوحدة فكانت شيئا طبيعيا بالنسبة اليه ولم يجاسر احد من القرية — ولو شيوخها — أن يقتحم حياته الخاصة يسأله عن الزواج فهو شيخهم وواعظهم ولحرمة الشيخ الخاصة حرمة لا يتطاول اليها احد

بلى لقد سأله يوما خبث من القرية : لماذا لا تتزوج ياسيدنا الشيخ ؟ فنظرت اليه عيون القرويين شزرا فقد تطاول على اقدس مقدسات القرية وجدف على السماء . ولكن ابتسامة ماكرة من الشيخ كانت كافية لأن تزيل كل هذا الغضب من النفوس : واطرق ولي الله الى الارض وتمتم بعد ان رجعت عيناه من سبحة روحية : سأتزوج يا ولدي ولكن . . . ترى أين أجد هذه المرأة ؟

وأسعفه عقله بحكايات الزواج والمعادة والسبل الموصلة اليها واستشهد بالآيات والأحاديث وبنصوص خليل وأبيات من ابن عاصم .

ومرت الأيام والسنون ودنا الشيخ من الخامسة والخمسين ولكنه ما يزال أعزب لا يؤانسه في وحدته الا اسراره واحاجيه حتى جاءت الليلة المطيرة الثائرة الزاخرة بالعواصف والثلوج .

***

هنا في طرف من اطراف القرية كوخ أقامه القرويون من فروع الشجر والطين ناديا للسمر يتجاذبون فيه الحديث ويتساقطون فيه النكت والملح والنوادر ويضعون فيه براج وخططا ساذجة بريئة تثير الضحك وترفه عن النفس .

وفي هذه الليلة كانت ثلة منهم متحلقة على النار تتقي بها لسعات البرد وسهام القر يسمرون ويتناشدون الزجل ويتبادلون النكت فيسترسلون في ضحك عريض .

وفي تلك اللحظة رنت في الجو زغاريد تلتمس الطريق الى عنان السماء تتحدى العواصف والرعود .

وتساءل المتحلقون : ما الخبر ؟

على أن جهلهم وتساؤلهم لم يطل فقد اقبل سليمان المجدود العضل الجري القلب زين شباب القرية والكريم ابن الكريم وارتاعوا حين سمعوه يلقي اليهم التحية في كثير من الفتور ثم حين رأوه يجلس في تبرم وسخط .

وسأله صديق : ماهذه الزغاريد ياسليمان ؟

واقتر ثغره عن ابتسامة تنضح بالألم والحقد وقال : هذه زغاريد ؟ شيخكم حمدان قد تزوج !

فصاحوا في دهش : الشيخ حمدان يتزوج ؟ قالوها كلهم في صوت واحد يمدون حروفها ويمطون .

— نعم ! لقد تزوج سيدكم الشيخ !

— ومن يا سليمان ؟

— من زينب !

فصاحوا صرخة أخرى — لكن في غيض — من زينب ؟

— نعم من زينب يا رفاق ! املح فتاة في القرية وأجمل وردة على البستان يفوز بها شيخ تصطك ركبتاه تحت أثقال السنين ! ألم أقل لكم : ان هذا الشيخ الأفاق — الذي لا أدري أي شيطان رجيم قذف به الى قريتنا صعلوكا فقيرا — ثعبان ماكر سيشعل النار في قريتنا الهادئة ؟ ألم اقل لكم ان هذا الرجل الذي لا يرى الا مطرقا متمتما بادعية واستعاذات كلما ذكرت امامه خلجات النفس واحاديث الحب والحبين — ذئب يكمن لينقض على فريسته بعد ان يغريها بالهدوء والسكون ؟

ألم أقل لكم — وهيهات — ان هذا الشيخ لص محتال ولن يشفع له هذا الفجر الذي يصليه كل صباح في المسجد وهذه الفوانيل التي يراءي بها الناس وهذا الحديث المصول الذي يرويه عن فلان وفلان حتى ينتهي به الى رسول الله ليجعلكم تعتقدون فيه انه ربع نبي وسدس متأله يمشي ويتبختر على الأرض تواضعا منه وكرما .

لقد ادركت الآن لماذا كانت نفسي تشمئز منه ومن حديثه عن السعادة التي يقول فيها : انها ثمرة التكافؤ والتقارب في السن ! فأي تكافؤ بينه وبين زينب ؟ وأي تقارب بينه وبينها في السن ؟ الآن أدركت لماذا كنت احتقره بل واكرهه لأنه يقول مالا يعتقد ويشير بسلوك طريق كان أزمع تنكبها عند ما تحين الفرصة . وها هي الفرصة قد سنحت . وخسارة ان تكون زينب هي هذه الفرصة وخسارة ان تذهب ضحية نزوة من نزوات نفس مريضة وشهوة محمومة انهكها حرمان خمسين سنة من السنين القاحلة الجدباء . فأي شيطان ثقيل قذف بهذا الكابوس الى القرية ليقدم الوجه النضر والشباب الريان والأنوثة الوافرة ضحية الى مولاه الشيطان ؟ .

***

وفي ركن آخر من اركان القرية شيخ يحدق الى المرآة يتحايل على هذه القطعة وتلك من وجهه المتجعد ذي الغضون ليجعل من نفسه شابا فيه ما في الشباب من نضارة وما في دمائه من حرارة وخفة ومرح .

كان يقبل ويدبر امام مرآته وقد اطال استشارتها فيفتر ثغره المتخلخل الأسنان عن ابتسامة صفراء حامدا للزمان الضنين اياديه وقد اسعفه بالمشتهى فتهادت اليه اللقمة اللينة غريقة في العسل .

***

وكنت أسير في الطريق مطرقا حزينا فقد كنت اعرف الشيخ الوقور وزينب المرحة — عند ما لاقيت صديقا من اصدقائي ومعارفي الشيخ فقال :

كنت ابحث عنك لأخبرك بشيء عجيب !

فقلت وأي شيء اعجب مما سوف اخبرك به ؟

واستعد للحديث ولكن لأمر ما خانته الصراحة فاذا بعينيه تتجهان الى النهج الطويل كأنما تتصيدان مشهدا من المشاهد يتخذها لسانه مادة ويتكلف عقله فيجعل منها حديثا عجيبا .

فقلت هات ماعندك يا رفيق .

فقال . . . لاشيء . . . مطلقا . انا أريد ان أسألك عن قصيدة قلتها في الليل شاعرا أظنه شوقي .

فاطرقت . . . ثم قلت لعلك تعني قصيدته القافية التي يقول فيها :

لاقيت اعراسا ولاقت ماتا

فقاطعني قائلا : والتي يقول فيها :

كالشيخ ينعم بالفتاة وتزهق !

فقلت : نعم كالشيخ حمدان مثلا :

وذهب يعدو ليدرك آخر قطار يوصله الى الضاحية وقد ادرك أني لست أبله الى الحد الذي يتصور .

محمد شريف الحسيني .

❁ بقية الصفحة الثالثة ❁

سؤال هام ! وهو : هل كان التاريخ الجزائري قديما وحديثا . ذا ثورات عنيفة خارقة توفرت فيها جميع شرائط الملحمة ؟ واذا كان الجواب بالايجاب . وهو كذلك لا محالة . فاهي البواعث التي جعلت شعراءنا يهملون هذا الجانب العظيم من تاريخهم القومي ؟ هذا هو السؤال الذي قصدناه ، الذي نحاول الاجابة عنه بشيء من السرعة ، وهو حكما ترون ليس سؤالا بسيطا يدفعنا الى التأني ومراعاة الظروف بل هو يتألف من قضيتين حيويتين : قضية تاريخنا وخصائصه الخالدة ، وقضية نهضتنا الشعرية واثرها في بناء المجد المنشود ! .. فان تاريخنا على غموضه (١) حتى الآن ، كانت جميع فتراته حافلة بالحوادث ، مفعمة بألوان الصراع والبطولة ، ولذلك نستطيع ان نقول : ان ارض الجزائر « ارض ملاحم » فان مكانتها الجغرافية الممتازة ، وآثارها الخالدة في تشييد معالم الحضارة الحديثة ، ومشاركتها في الميادين العلمية لكل جيل ، جعلتها مطمح الانظار ، ومشتهى النفوس ، سواء في ذلك القديم والحديث ، وقلما يوجد شبر من ارضها لم تسقه الاقدار دما ، ولم يكن مسرحا لحادثة تاريخية عظمى...

❁ للحديث بقية ❁

بلقاسم سعد الله

(١) لا نريد بكلمة « غموض » في هذا الصدد ما يفهمه منها الاستعمار حيث يريد اذابة الروح التاريخية وامحاء ذاتيتنا من سفر الوجود بل نقصد ان هذا التاريخ لم تكشف — بعد — اسراره كشفا يجعلنا نقف على معالمه الانسانية وندرس خصائصه الخالدة في جميع العصور ...